معالم نقدية وفكرية

في ثنائية (البرزخ والسكين)

للشاعر عبد الله حمادي

بقلم

محمد الأمين شيخة

أستاذ مساعد بمعهد الآداب واللغات . جامعة الوادي . الجزائر.

ملخص البحث

ديوان الشاعر الدكتور عبد الله حمادي المعنون بـ: (البرزخ والسكين) من الدواوين الشعرية القليلة التي تقاطع فيها الشكل بالمضمون وامتزجت فيها الفكرة الأيديولوجية بالنظرة الحداثية ، وقد حاول الشاعر بيان ماهية الشعر من منطلق حداثي غير منسلخ عن المورث العربي القديم وخاصة في جانبه الصوفي فكان هذا الإبداع بمثابة العتبة الفنية والفكرية يرصد بها الشاعر واقعه ومشاعره ونظرته إلى الأحداث .

والجدير بالذكر أن القارئ لهذا الديوان وما تقدمه من تنظير يلمس ارتباط الشاعر بالوطن فكرا و أدبيا كما يلمس روح التمرد والتطلع إلى الجديد عبر القصائد المبثوثة والتي تترجم عمق الارتباط بين المعاصرة والموروث في قالب فني رائع يكشف ثقافة الشاعر النقدية والأدبية والاجتماعية بغية الوصول إلى حقيقة الأشياء وكنهها عبر التداخلات النصية والإيحاءات النسقية والسياقية .

Résumé

Ces poèmes de docteur ABDELLAH.HEMMADI surtitre " espace et couteau " sont parmis les rares poèmes algériennes ou on trouve que l'idée travers la forme dans un magnefique mélange entre l'édiologic et la vision mondiale, notre poète vient de donner une définition correcte a la poésie suivi par des poèmes " livres " pleines de charité et sentiments . a l'aide d'un langage des soufis cette création qui ne s'échappe pas du passé culturel arabe a fin de montrer la vérité et l'état de vie du poète et son entourage , donc cette poésie viens de marqué une station nécessaire dans le chemin de la poésie Algérienne moderne .

توطئة :

لا يمكن للقارئ في هذه الفترة الزمنية الحالية أن يتجاهل أو ينكر الأقلام الجادة والمبدعة التي حبرت ومنذ سنوات قليلة نصوصا وإبداعات شعرية اتسمت بالغزارة والخصوبة والتنوع في حياض العمل الأدبي الغني ، ومن هذه الأقلام المتخصصة ما جادت به قريحة الشاعر الدكتور عبد الله حمادي ، خريج جامعة مدريد المركزية بأسبانيا وأستاذ بكلية العلوم الإنسانية قسم اللغة العربية وآدابها ، والحق يقال أن الرجل صاحب رؤية فنية نافذة نهلت من منابع الفكر والإبداع الغربي والعربي بحكم التجارب والتجاذب مع الوسط الثقافي والأكاديمي فتنوعت إنتاجاته بين الإبداع الشعري والتأليف في مجال الدراسات الأكاديمية والدراسات العلمية الأخرى ، والتي جاوزت العشرين مؤلفا في شتى المجالات ناهيك عن المقالات والدراسات المبثوثة في المجلات والدوريات .

وبحكم احتكاكي المتواضع والبسيط بإبداعاته الفنية أحسست بولوع هذا الرجل بالتطور والتجديد ورؤيته الفنية المتطلعة إلى كسر الجمود والتقليد الفكري والإبداعي إذ يرى في الشعر كما يقول « كتابة القصيد بلا مفهوم منطقي عقلاني وإنما بمفهوم منطقي انفعالي وإيجابي » .

وهذا المفهوم المتجدد لمعنى الشعر لم يمنعه من رفض الموروث فيصرح في موقف آخر قائلا : « فالحداثة أخي القارئ ليس معناها طرح الموروث والسطو على أنقاضه الثابتة بمعاول الردة والتشكك والوقوف منه موقف الخصم والتضاد ، إن الحداثة بمفهومها الصحيح ... هي البحث المستمر عن إيجاد خيط التواصل حيث ينصهر الحاضر في الماضي ليشرف غد مسكون بحرارة الاستمرارية ونبض المعاصرة ».

فالحداثة عند الشاعر إذا ليست هي المعاصرة لأن المعاصرة تتجدد بالزمان الخارجي الذي يحصر الفترة المعينة وفيه يلتزم الشاعر بترديد الشعارات السائدة في عصره من دون اختراق هذه الشعارات بل مطابقة المعيار السائد فيها .

وأمام هذه الرؤية المستقبلية للفن الشعري والتي ترجمتها معظم دواوينه الشعرية ارتأينا أن نتناول إحداها لنلقي عليها نظرة نقدية خاطفة تترجم المضمون والشكل وتحاول بلورة هذه الرؤى واستشفاف الجديد في عالم وواقع هذا الشاعر وفي سياق الحديث برزت آخر إنتاجاته الإبداعية الموسومة بـ (البرزخ والسكين) من نشر وزارة الثقافة السورية سنة 1998 ثم طبعة من منشورات جامعة منتوري " قسنطينة " سنة 2000 وطبعة أخرى لدار هومة " الجزائر العاصمة " .

الشعر واللغة عند الشاعر :

وعند تصفح هذا العمل الأدبي يلاحظ القارئ ميل الشاعر للتنظير في عالم الشاعر ومنه بيان خصائصه وميزاته فكان تصديره لهذا العمل بمقدمة عن ماهية الشعر على شكل المقدمة التنظيرية التي صدر بها ديوانه السابق « تحزب العشق يا ليلى » دار البعث 1982 وتكلم فيها عن لوازم الحداثة والمعارة للقصيدة العمودية أما في هذه المقدمة الجديدة فقد رأى الشاعر رأيا في الشعر يصوره ويراه إبداعا خارقا للعادة وتشكيلا جديدا للكون بواسطة الكلمات أو اللغة ، واللغة عنده ليست الأساس أو القاعدة لأنها ملك مشاع عند جميع الشعراء والمتشاعرين ، فالشعر روح وإيحاء بلسان العالم فلا يترجم العالم أو الواقع بل ينقل التجربة الباطنية ويعمل على كسر أنظمة اللغة وتركيبها، عساه أن يحيط بالمعقول واللامعقول وبالتجارب الباطنية الإنسانية : إن الشعر الحقيقي هو ما يخلف أثرا جماليا من كنه الأشياء ويحافظ على التوافق والتناغم بين مستوى الصوت والدلالة حتى إنه وصل إلى الارتقاء في بعض المذاهب الفلسفية واحتل درجة التقديس والشعر في كل ذلك يهدف إلى بعث الحياة في أبهى صورها ويحاول إدراك الحقيقة الأزلية وتطهير النفس من دنس المادية المالية المتعجرفة ، فأصبحت أو تصبح الكلمة الشاعرة ملاذا رحيما من جحيم التقنية المدمرة للذات الإنسانية .

الشعر والحداثة :

إن الشعر الحداثي بمثابة البرزخ بين الماضي المكلل والمدجج بقوالب السلف الجاهزة وبزخارفه ومسكوكاته الرتيبة ، وبين الحاضر وما ينبغي أن يشهده من انقلاب مسكون بالحساسية الجمالية المغامرة ، ومن ثم اتخذ الشعر الحداثي لنفسه مهمة البحث والتجريب من أجل خلخلة البنى الذوقية التقليدية للوصول بها إلى مرحلة التكيف مع التغيرات والمستجدات الحضرية التي تنصاع لمتطلبات الفكر والذوق والإحساس المرهف البعيد عن التقليد والاحتذاء. وهي مهمة صعبة جدا تنطوي على قلق دائم لا يعفو عليه الزمان " فالحداثة الإبداعية ليست معادية للتراث كما يخطئ البعض فمن خصوصياتها تمثل التراث وليس اجتراره " غير أن الحداثة لا تلتزم بمجرد الوجود في العصر والمكان بل تتعداهما بمجموعة انزياحات (Ecarts) ـ أو بتعبير بسيط ـ انحرافات أو عدول عن المعيار السائد في الشكل والمضمون لتخاطب القارئ أو المتلقي بلغة غير اللغة المعهودة وبمعاني مستحدثة لم يألفها العصر ولا المتلقي لها ، وبهذا تتحقق الروحانية واللذة التي تكلم عنها " رولان بارت " في كتابه " لذة النص " وتخرق بذلك الآفاق المنتظرة لدى المتلقي، أو كما يراها الشاعر في مرجع آخر (أو ذلك الانفعال الجذاب الذي يشعر به المتلقي وهو يستقبل العمل الشعري في شكله المتكامل مما يجعله يحدد موقفه العقلي منه فينحاز إليه أو يعرض عنه) وهذه الخصائص هي ما يجعل القارئ بعيدا عن التكهنات المسبقة وعن الأحكام القسرية التي تعود عليها سابقا ويقلل بذلك من إحساسه بتبعية العمل الأدبي إلى منتجه ليرتقي إحساسه بذاتية الشعر ونشاطه المستقل والفريد عن العلوم الأخرى الحافة به كعلم التاريخ أو النفس أو الاجتماع، ولكي يصل المتلقي إلى هذه الدرجة من الإحساس يتطلب منه أن يتوافر على الاستعداد الفني والجمالي والثقافي الذي يؤهله لعملية التلقي وهذا ما يترجم قول الشاعر (... ويجعل رغبة المتلقي منحصرة في رغبة التصدي حتى لا يقع التجاوز ، من هنا تصبح ضرورة وجوب القارئ الممتاز حتمية لا مرد لها) .

نرى شاعرنا في آخر هذا التصدير وقبل الخوض في غمار الشعر يكشف عن جدوى الشعر وفائدته للمجتمع في ظل عصر السرعة والمعلوماتية ، وكانت إجابته من خلال مقاطع شعرية للشاعر الإسباني " قوستافور أدولفو بيكر " تتضمن سر ديمومة الشعر في ارتباطه بديمومة الحياة وتنوع طبيعتها وفي سعي الإنسان الدؤوب نحو الراحة النفسية البعيدة عن صخب الآخرين ، فما دام هناك بشر على وجه الأرض يتألم ويحب ويتفاهم مع الآخرين بكل جوارحه ووجدانه ، فسيكون هناك شعر على الدوام .

الشعر والنزعة الوطنية :

وكانت بداية الإبحار في عوالم الشعر بوقوع ووقوف الشاعر على شاطئ الوطن الحبيب وعلى باب سماه (كتاب العفاف) ضمنه أغنيات للجزائر فكانت قصائده العمودية السبعة بمثابة عرائس ، بل عجائب العالم السبعة في ذاتيتها وفي إيمان المبدع ، فتنوعت بحورها وإيقاعاتها بتنوع الأحاسيس الذاتية ، وارتسمت على هذا الكتاب أناشيد وطنية مليئة بالسؤدد والعزة ومشحونة بطاقات التعبير جسدت انتماءه الروحي والجسدي والعقائدي فهذه قصيدة " جزائر " على وزن المتقارب قارب بها وحاكى جمال وبدعة الجزائر في إلياذة مفدي زكرياء ضمنها بطولات ومآثر الوطن :

جزائر يا قلعــة الثائـــرين ❖❖❖ ويا قصة الخلد والخــالدين

ويا موردا سلسبيل الضلال ❖❖❖ ويا نشوة من أريج الكمال

وعلى وزن الخفيف خفت روحه وطفت مشاعره وأحاسيسه من الشوق والإلهام وعشق أرض الجزائر والشجعان :

لا تلمني في حبها وهواها ❖❖❖ لست أختار ما حييت سواها

لست أختار فالجزائر لحني ❖❖❖ منتهى الوصل إن أغن بهاها

وعلى إيقاع المتدارك كانت قصيدة " وطن " تلامس جسد الجزائر وتعانقه وطنا يكبر بين الأوطان ، عانق الشاعر تراب ورمل الجزائر وطنا كريما :

وطن يكبر وطن يعظم ◆◆◆ وطن يسكن فوق الأنجمْ

وطن ثائر وطن سائر ◆◆◆ وطن يصعد رغم الجائرْ

وفي انتقاله لإيقاع الكامل عاد المبدع ليردد قصيدته " قصيدة الجزائر " ليلهم الكمال والخلود لأمجادها وبطولاتها ويؤكد ولاءه وحبه لها :

قدر الجزائر أن تكون الأكبرا وتكون سفرا للشهادة أخضرا

وتكـــون حلما بالفتوة يانعا وربيع عمر بالنضارة أجهرا

إلا أن هناك من المتربصين لها والقابعين لنصب شراكهم فكانت قصيدة " أطفالنا ...فإلى الحجارة " وبها رسم المبدع صورة أليمة لواقع الجزائر ، ورصد آلامها وأحزانها ، ورثى رجالها ، فاكتمل الحزن على إيقاع مجزوء الكامل ليعكس جرح المدينة ، ومحاولة تفتيتها بفعل المتعصبين ، والمتآمرين ، ولا يكون سبيل الفرج إلا على أيدي أطفالها أو قل رجالها المخلصين ممن يحاكون أطفال الحجارة في " طولكرم ، وجنين " :

قتلوك في وضح النهـار ◆◆◆ وأطلقـــوا عبثا إشاره

كبسوا الحصار وسيجوه ◆◆◆ وحكموا قيم الدعاره

وتنتهي قصة هذا الكتاب ، وعلى هذا الشاطئ بحلم وردي يعانق ذات الشاعر بقصيدة " حلم أزيلة " وهي مدينة مغربية على المحيط الأطلسي ، وعلى نفس الوزن الذي دخل به ـ المتقارب ـ يبحر الشاعر بخيالاته ليستحضر أسفاره وغربة وذكرياته المشدودة بحمى الأطياف البعيدة الملقاة على الضفاف الأخرى ليعزم على ركوب المغامرة نحو المجهول :

أتنهض بعد السنين الطويله ◆◆◆ لتعشق طيفا هفا من أصيله

وتركب للبحـر يختا قديمـا ◆◆◆ تغـــازله معطيـــات جميله

ويواصل :

وفاء ... وما وجع الليل إلا ❖❖❖ خواطر شوق تدنت ثقيله

تدنت بأبخرة الذكريـات ❖❖❖ وفي نفحـــات قتيل القتيله

الشعر والنزعة الذاتية :

وجاء الكتاب الثاني بنقلة نوعية نحو عوالم الشعر ، ونحو عالم النور ليستنير به المبدع ، وينير دروب الواقع ، والعالم الروحاني ، وعبر ثلاثين مقطعا رباعيا سماها " رباعيات آخر الليل " صدرها بما يبر كبحه لنشاط العقل ، والمنطق ، وتحرير النفس وخلجاتها من سلطتيهما لتعبرا عن ذاتها بذاتها ، فكانت كلمتها حكما وعبرا للناس جالت بها عبر القلب والوجدان ، وخفت بها لتطفو ، وتنتشر في بهيم الليل خفة البحر الذي سارت على إيقاعه ، وكانت نقلة النفس عبر هذه المقاطع بمثابة من يأخذ من كل بستان زهرة ، فمن وهج الليل المريب ينطلق القلب صاحيا من جديد صحو المغرم الهائم ، وتأتي النشوة من حب الصراع والمكابدة ، فيتصف الوفاء بذلك سرا للوجود ، وتلحق بالتمني والتغني والتبني خيبة وعار كبيران :

ما دهاك تقيم صرح التجني ❖❖❖ مستبيحا عفافه بالتمني

أنت أغمضت للضياء جفونا ❖❖❖ وانتهكت شفاهه بالتغني

إلى أن يزداد الحب في عناده ، وتحديه فيلجأ المبدع إلى المواجهة ، وينكشف الظالم والمستبد لينصاع لسلطان القلب فيعود الشاعر بعد ذلك إلى ذاته يطلب الملاذ إلى شعره نذيرا ويرد اللوم على خصومه بتفنيد أكاذيبهم ، ويقدم النصح والبيان ، ويطلب من ثمة العفو والصفح، ويرجو النجاة والانتشال من عالم الحيف والبهتان:

ظالم أنت فانتسب يا غوي ❖❖❖ وارحم الزهر في حقول الغرام

واكبح الخوض في مدار التشفي ❖❖❖ واعتق الحب من شراك الظلام

وينقل بعدها عناء الليل والصمت الجاثم على النفس ، ويجس نبض القلب ولواعجه فيرى منه سحرا يتحدى الجوارح ويبحر أمام مخيلة المبدع ليشعل شوقه وهيامه، ويرسم تجاربه ولوعته بالرحيل وراء الأطياف ، فكان السلاح الكلمة الشاعرة، وكانت الذخيرة العزيمة والإقدام :

مرهف الظل يا بهـي الملام ❖❖❖ لا تعجلها في حضـور الظلام

ضقت بالليل فانتشله رويدا ❖❖❖ واطلب العفو من ظريف القوام

ثم يعود على إيقاع الكامل ليعطي صورة لذاته هي صورة فكره ووجدانه وآلامه ، فيعود بنفسه إلى التواضع والبساطة إيمانا منه بحتمية الفناء وسلطة القدر ، ومنها إلى الإيقاع الخفيف ليسطو على عالم التصوف ، ويقرن العشق بالصلاة والهوى والسجود بين يدي الحبيبة ، وطقوس العفاف :

كم أراني وكم أراك تقاسي ❖❖❖ صدع النور يا حبيبة راسي

سفك دمعي على هواك مباح ❖❖❖ وانتحاري فدا العيون يواسي

فاعذريه وجلليه صـلاة ❖❖❖ ملؤها الطهر وانشطار التواسي

وعلى وزن المتقارب يأتي الصوت ويخبو التمني خوفا من الآتي المخيف ، ومن القادم المتجني ، لكن حب المغامرة والإبحار مكنا المبدع من الإحاطة بالكون وطوعا له الحدود ليرقى بالحبيبة إلى الدرجات العليا ، ومنه أفضى القدر إلى مجالسة الليل ، ومعانقته لتورق على يد صاحبه أوراق سحرية يمتلك بها سر الكلمات والحروف ، وبها يكون التجديد والتحديث :

فإن أورق الليل في راحتيك ❖❖❖ تدنت لك عاليات القطوف

وسيق لك النور مغمى الجفون ❖❖❖ وأعشى مداه سناك المخوف

فألفت بين الهنا والهنـــالـك ❖❖❖ وبين المعـاني وسـر الحروف

ومن على وزن الخفيف سار المبدع بدعاوى اقتحام المنافي والاصطبار على ظلم الحبيبة ، وبالتجلد والصبر يختم آخر مقطع متأملا في قدرة العفو ، والجزاء والرحمة عند خالقه :

موعد العفو والبقية تأتي ❖❖❖ فاطلق الحبل لو أردت نجاتي

هو يجري مناسك الذل ذلا ❖❖❖ ويهيب برحمة بعصـاة

الشعر وروح التصوف :

وهذا الكتاب الثالث والأخير إيذانا بعودته إلى البداية ومعايشه الواقع بمرارته وحلاوته المادية والمعنوية عساه أن يحط رحاله على شاطئ الأمان بعد الإبحار في غمار الذات الشاعرة ، فضم هذا الكتاب الذي سماه " كتاب الجمر" أربع قصائد من الشعر الحر صدره بقصيدة" مدينتي" المصدرة بدورها بآية من سورة الإسراء تحيل في البداية قارئها غلة ما يستعرضه من صور الألم والدمار فكانت مقاطعها المتعددة " 16 مقطعا " صورا من هذا الدمار اللاحق ، انتقل المبدع الحزين ليرصد صوره في البلاد وعلى العباد، وفي البدع والحروب والأحلام المزيفة :

مدينتي ... !

مدينتي ... مدينتي لو تجهلون في المتون

مقبرة

أحلامها أوسمة

وسلع مهربه

وبدع محربه

واستعرض سطوة الظالمين من الفجار وممن سماهم بالمجوس، من خبث الانتهازيين، فأحالوا المدينة إلى ساحة دمار وتلغيم وعار :

مدينتي داهمها " الفجار والمجوس"

فخيلهم تدك براءة النفوس

فمدينة الشاعر لا عهد لها بذلك لولا المؤامرة والدسائس بل إنها أسكتت عن الإفصاح والبوح بقوة هؤلاء فأصبحت أزرى وأذل فلا تسألوها عن حالها مادامت فريسة يتجاذبها الكبار والصغار واليمين والشمال ، وما بين مآسي التاريخ ومجازر الحاضر ، وبين تعصب الأحبار وانسلاخ الفجار سارت إلى الضياع ، وكلهم أبناء المدينة نفسها ، وكلهم مغرقوها :

مدينتي ... مدينة

لفظها التاريخ والبخور

فأشرعت بوابة

للكفر والنذور

...

فطرتها اليمين

نزوتها اليسار

وعشقها ممزق

أيهما تختار ؟

فلسان الشاعر هذه المدينة وقصيدته هي ، يحملها حيث يشاء بعيدا عنهم وعن أعين المراقبين .

وتأتي قصيدة " البرزخ والسكين " لب الديوان وسر وجوده ، وقد علق عليها الدكتور حسين خمري قائلا : (...تجتهد في بعث الجو الصوفي وتوظيف الرمز الذي يحيل إلى ذلك محاولة تحيينها بالراهن) فهي بذلك إبحار في عالم الحياد والطهر بعيدا عن دنس الحياة ، مليئة بالرمز والخيال ، صدرها بمقولة لأحد أكبر الفلاسفة العرب " ابن عربي - 638/560 هـ " توحي بقدرة الخالق على بعث الحياة بين يديه وقدرته

على بعث من فيها إلى دنيا دائمة أو نهاية حتمية (له النزول ولنا المعراج) وهذه القصيدة الحرة تعتمد على تكثيف التداخلات النصية من القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف ، ومن أقوال السلف الصالح وتستلهم أفكارها من حوادث هامة في تاريخ البشرية ، اعتمد فيها المبدع على عشرة مقاطع منفصلة ، انتقل بها من فكرة الألوهية وتجسيدها في الفكر الصوفي ، وفي فضائلها وكراماتها الخارقة إلى فكرة الخطيئة والعصيان من أبينا آدم وأمنا حواء فكانت البداية وكان البرزخ ومنه تلتها مواقف حاسمة في حياة البشر وصراع بين هابيل وقابيل :

كان البحث مسبوقا

بغراب يوري سوأة للعاشقين

لا يا طائر الزمن الخافت

عاشق جثث ومن خلفي قوافل وأمامي برزخ

إلى صراع الذات مع نفسها في المحبة الإلهية وتكريسها لفهم حقائق الكون ودواخله وصولا إلى حقيقة الفناء، وحتمية النهاية بطريقة العذاب والصراع:

مسكونا أنا بنافلة الأطوار

وبرزخ ما بين عافية وعاقبة

تتجاذبني شفتان

واحدة للزهراوين

وأخرى خاتمة للبقرة .

ووسط هذا الصراع كان شاعرنا منزويا في عالم الغفران مخاطبا الكون من بعيد ينتظر ساعة السكون والتي لن تكون إلا خاتمة السكين :

عاقبة البدء

وخاتمة السكين

خيال في ... خيال

سؤال في خيال

خيال في عماء ...

وثالث قصيدة بعنوان " يا امرأة من ورق التوت " ذات المقاطع المتعددة ـ 14 مقطعا ـ جاءت بتصدير تضمن كلمات من سفر التكوين " التوراة " تقص حكاية أبينا آدم وأمنا حواء في الجنة ،وأكلهما من الشجرة المقدسة ، وانكشاف عورتيهما ، فاتخذا من أوراق التين لباسا وسترا ، ومنه استلهم العنوان ، واستلهم المبدع حديثا للمرأة المكشوفة المثخنة بالآثام بحديث يزخر بالرمز ومبثوث بأفكار التصوف :

وتقرب بين شفاه امرأة

من صخر

تنام في شرفات

يزني في محراب عفتها

حمام وغراب

لا أحد ينفض عن هذا الإثم

غوايته

ولقد عدها ـ أي القصيدة ـ أحد النقاد تجربة شعرية حديثة تعتمد على اللغة وتفاعلاتها الجمالية، وفي انتقال المبدع عبر هذه اللغة علق خطاياه على باب هذه المرأة التي يراها السند والمعين ، واكتشف خيانتها فأوقعته في الذل :

علقت عتابي على باب مدينتكم

احترف العشق

واللعب الآهلة بالوحشة

والغارات المهزومة

وأقر انهزامه اللامحدود وهو مفتون وأعمى بعشقها يسير في تيار العاشقين ويجري في مجراهم ويعود بالذكرى لائما على أيامه الخوالي ، أيام المدينة التي حفتهما ، ويعاوده الحنين للطفها كالطفل بين الأذرع تغمره عشقا ويدهشه الاحتراف في عينيها فيتمنى فتاتات من غيثا العميم :

ما أجمل أن تبعث طفلا مغرورا

يكبر فوق ذراع

يغمد فوق شفاه

يرهقها البوح وأطياف

غيبيه

وفي دأبها يراوده الحنين إلى الإبحار في عوالمها المليئة بالكتمان والمحكومة بالسر، فأضحت تحاصره في صحوه وفي صلاته إلى حد أعلن فيه عودته كالمخمور أو الممسوس الذي عاوده المس بعد الشفاء .

ولا بد أن المرأة هنا كانت المطية أو الجسر الذي حاول المبدع عبوره ليلبس حقيقة إحساسه ثوبا يناسب المحتوى الذي يصبو إلى تحليله والتعبير عنه .

وختم المبدع هذا الكتاب بقصيدة " لا يا سيدة الإفك " ذات التسعة مقاطع والتي تتداخل تاريخيا مع حادثة الإفك في عهد الرسول " ص " ليستلهم المبدع من خلالها روح الحادثة ويبدأ عرضه هذا من موقع المتهم بالخطيئة في عالم الشعر الذي كثر نومه فتأخر عن موكب النجاة ، وخطر بباله الإثم حتى تنبأ بالخطر ، خطر قبلة على شفة من عبق الأزهار :

هو السفر الممتد على وجعي

أيسره العسر

أعذبه الألم الملقى

على شفة من عبق الأزهار

وأي قبلة يتهم بها المرء ، والتي تكسر الحدود وتعبر الشطآن وتقف تمثالا للرغبات الأخروية ، فهي طفرة في عالم الجمود وأشهى من المطلوب والمرفوض ، فيعلن في خضم هذه الصور تبنيه لها لأنها قبلة فردوسية على باب الغفران وكهف الأبرار ، قبلة لا تحمل من دنيويتها إلى الإحساس باللذة والمتعة فكانت قبلة صوفية لا دنس فيها ولا إثم :

يكبر عري في حضن الوجع الليلي

ما بين المشعر والجمرات

ما أشهى أن أعصره كرما

من شفة السكر

من خمرة الحضرة من فيض الإثم

من مائدة الصديقين .

ومن خلال هذا العرض التفصيلي ، والتقويم المبدئي لمحتوى هذه الكتب الثلاثة يمكننا أن نتوصل إلى بعض السمات الفنية التي تخص المضمون والشكل من خلال تتبع أهم ما ورد في هذه الكتب ، ومحاولة إيجاد قاعدة خلفية نظرية للظواهر التي رصدت وفق بعض المناهج والتيارات النقدية الفاعلة في الساحة الأدبية.

ففي الكتاب الأول كتاب " العفاف " الذي ضم سبع قصائد غلبت عليها النزعة الوطنية وروح الإنشادية ، وتقاطعن عناوين قصائده في مفصل واحد وقاسم واحد هو " الجزائر " (الجزائر ـ أرض الحرية ـ هي ليلايـ وطن ـ قصيدة الجزائر ـ أطفالنا ... فإلى الحجارة) وكان الاستثناء على القصيدة الأخيرة " حلم

أزيلة " التي فضل المبدع تركها تمهيدا للدخول بها إلى الكتاب الموالي وهو كتاب الإبحار في عوالم الشعر الخفية .

وبتنوع الجزائر في ضمير الشاعر تاريخا وأرضا وعشقا وخوفا تنوعت إيقاعاتها لتتغلب الإيقاعات الصافية وتطغى ، وهي إيقاعات محببة للنفس بعيدة عن الحشد والتقرير مليئة بالحركة والتلاحم وهي (المتقارب ـ الرمل ـ الكامل ـ مجزوء الكامل) وخص بعضها بالوزن المزوج (الخفيف) كما لم يغفل شاعرنا تقديره لشعراء آخرين من مثل شاعر الثورة مفدي زكرياء في إلياذة الجزائر حتى إنه ضمن بعض مقاطعه مقاطع من الإلياذة (يا فتنة ـ يا جنة الخلد ـ يا قصة ..) وهي ظاهرة صحية تبعث على التفاؤل والتنبؤ بالجديد في التراث فكرا وصياغة ، وهذا لم يمنع المبدع من اتخاذه شخصية شعرية فريدة من نوعها فغنى بأسلوبه (أرض الجزائر) وكانت أنشودة من أناشيد الجزائر اعتمد فيها على اللفظ البسيط والجملة الموجزة واللغة السليمة المستحدثة ، أعطى القصائد نوعا من المعاصرة وانتقل نحو اللفظ البسيط الفصيح وشيئا فشيئا في القصيدة الموالية (هي ليلاي) فكانت ألفاظه من مثل (هواها ـ مهجتي ـ وجد) نواميس أصلية زادت في ضياء النص ، وطعمته برحيق الأصالة ، كما كانت لفظة الوطن في قصيدة (وطن) بؤرة النص ومركز القيادة ومنبع التوليد وبمثابة الأصل الذي توزعت منه الكلمات الأخرى وفي اتجاه واحد رغم أن المعجم العربي حافل بمرادفاتها وهذا يحيلنا إلى أن اللغة العربية قد تكتفيإن صح القولبمحور التأليف أو التركيب من دون محور الاختيار في تكوين شعريتها رغم أن الشعر عند القدماء من أمثال عبد القاهر الجرجاني تأليف بين الاختيار في اللفظ والتوزيع أو التركيب في النسق .

وهو ما تفطن إليه النقاد المحدثون من أمثال " رومان جاكوبسون" و " رولان بارط " في قضية الشعرية في النصوص الأدبية، وما أسس له " بلومفيلد " وغيره من قوانين التوليد والتوزيع، وعلى نفس المنوال ـ تقريبا ـ سارت قصيدة " قصيدة الجزائر " كنشيد يصور الخلود والعزة تضمنت ما تأصل وما استحدث من لفظ بديع ومن صور زاهية ووقوف على بعض المعالم من واقع الجزائر " الأوراس،

الصومام، أم الكتاب " وغيرها وفي نقلة نحو واقع الجزائر الأليم ـ كما أسلفنا ـ كانت قصيدة " أطفالنا ...فإلى الحجارة " وهي قصيدة تتقاطع مع أحداث فلسطين وثورة الحجارة، حاول المبدع بها الثورة على الأوضاع المزرية ، وحاول كشف المكائد المحاكة ضد هذا الوطن فلفظها البسيط وتركيبها الأصيل الذي لم يخرج عن قواعده المعروفة مكنها من تأدية رسالة إلى المخلصين لهذا الوطن، فكانت الوظيفة الإبلاغية أقوى وأظهر من الوظيفة الشعرية وبدخول المبدع عالم الرؤية والأحلام كانت قصيدته الموالية ليستبطن ذاته ويقف على معالم الذكرى فطغت شعرية القصيدة على وظائفها الأخرى، وبرزت من خلالها بنيتها العميقة المشحونة بدلالات المجاز والخيال رغم بساطة الشكل والسطح في اعتماده على اللفظ السليق، والتركيب المعهود والمجاز الذي لم يخرج على دائرة التشبيه والاستعارة والكناية.

ومما نجمله من خصائص هذا الكتاب وسمات المبدع من خلاله :

- التركيز على الكلمات المفاتيح وتقاطعها في مفاصل داخل القصيدة ومن خلال الكتاب.

- ارتباط القصائد برؤية واحدة موحدة في حب الجزائر والدفاع عنها والتفاخر بمآثرها

- اعتماد اللغة السليمة ذات التعبير الانفعالي الإيجابي .

- الاعتماد على مستويات النحو والبلاغة والتركيب والمجاز المعروفة .

- البنية السطحية للقصائد أدت وظيفة مساعدة لترجمة معاني البنى العميقة .

- تأسيس نظام القصيدة الوزن التقليدي وعلى موسيقى داخلية غير طاغية .

- غلبة النزعة الوطنية على الكتاب .

أما الكتاب الثاني كتاب " كتاب النور " والذي تضمن حديث الشاعر عبر الذات في بهيم الليل وفق الشكل الرباعي ونظام المقاطع والتنويع في الإيقاع بين

الخفيف والكامل والمتقارب، كانت تجربة الشاعر رائدة في رؤية عامة ترى قصور العقل والمنطق حقيقة ثانية لإدراك الحقائق بدعوة الذات إلى عالم المغامرة والصراع مع الحاضر ليطلق المبدع جماح التعبير يحاول الإحاطة بأسرار الكون، فكانت هذه الأسرار بمثابة حكم وعبر وقواعد تؤسس لحياة حقيقية كما تؤسس للتجارب الشعرية المستقبلية، وبالاعتماد كذلك على اللغة الأصلية واللفظ مستحدث استطاع المبدع أن يخلق داخل قصائده عناصر جديدة فكرية وعاطفية لم تألفها الأذن الصاغية من قبل، وكرس هذه اللغة في تشريع الغموض والتلميح كمنهج رائد زاد من ذاتية هذه القصائد، ومن تفردها ومن تمردها على العقل والمنطق الواعيين، ومما رصدناه من معان مفجرة وجديدة قوله (واسكب اللحن في مرايا المنافي) وقوله (معبر الإثم محنة تستضاف)، وكلها بنى مشحونة بدلالات لا عهد للقارئ والناقد بها، وما يمكن أن نجمله من مجموع السمات حول هذا الكتاب وصاحبه ما يلي :

- دخول المبدع مرحلة تجربة شعرية جديدة ذات رؤية ثائرة على المعقول والمعهود .

- محاولة فصل الشعر عن ذاتية المبدع بإعطائه تأشيرة التفرد والخصوصية .

- التأليف بين المادي والمعنوي في التركيب الواحد لإعطاء نوع من التفاعل بين المحتوى الفكري والمحتوى المادي .

- الاحتفاظ بالوزن التقليدي ومحاولة تطويعه للمحتوى الحداثي .

ويأتي الكتاب الأخير كتاب " الجمر " بمثابة قفزة نحو عالم التصوف والإخلاص والطهر الأبدي اعتمد فيه الشاعر على الموروث التاريخي والديني كأساس وقاعدة ينطلق منها ليطلق العنان للتعبير الحر في تفسير الحقائق وفق هذا المنظور، فكان القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف والتاريخ الإسلامي خير معين له متسلحا بإيمانه الخالص بضرورة التحاور مع هذه النماذج وفق آليات حددت في الماضي بخاصيات الاقتباس والتضمين، وحاضرا بآليات التناص عند " باختين " و " جوليا

كريستفا " مما حذا بالشاعر إلى ضرورة الانزياح " Ecart " أحيانا بالفكر والصياغة الشعرية إلى صياغات جديدة في قالب الشعر الحر ذاته وظهرت تجديدات شكلية بسيطة من وحي الشاعر الخاص جسدتها تلك التصورات المتنوعة من فكر الأديان واجتهادات السلف الصالح انتقل فيها المبدع ليصور الواقع واقع المدينة المحاصر بالألم بين " اليقين " و" الشك " وبين " الكتاب " و " الرصاص " فكان اللفظ " مدينتي " محور كلامه وعنصر التأسيس في القصيدة الأولى ثم ليعرج بها على " البرزخ والسكين " ويستعرض قصة البداية والخطيئة الكبرى والنهاية المحتومة بعدها .

وتليها قصيدة " يا امرأة من ورق التوت " و " لا يا سيدة الإفك " لتسيرا على المنوال السابق، وتجسدا صورة الصراع من الطرف الثاني وفق طقوس تحولت فيها المعايير والأسلحة إلى إمكانات ذاتية داخلية تنبع من مآسي السلف لتصنع أمجاد الخلف ومما يمكن أن نسجل ضمن هذا الكتاب ما يلي :

- تأثر المبدع بفلسفة التصوف واتخاذها ميدانا خصبا لصوغ التجارب الشعرية الناضجة
- الإيمان بضرورة التفاعل بين الحضارات والأديان المتشابهة " حوار الحضارات "
- الإيمان بسلطة النوازع النفسية والجسدية على الذات البشرية .
- الارتقاء بالفكر الإنساني إلى درجات السمو الروحي والعاطفي .
- بروز فكرة تطهير الحواس والجوارح لخدمة الأغراض العقائدية .
- تطويع اللغة الواقعية للتعبير عن رؤية فكرية غامضة وصعبة .
- ضرورة التجديد في قوالب التعبير ومحاولة المزج بين المنظوم والمنثور صياغة .
- الاندماج العجيب بين الوظيفة الشعرية وفكرة التصوف عند الشاعر .

العرض والتقويم :

وإذا تفحصنا هذه الخصائص العامة وهذه السمات الخاصة التي ميزت كل باب على حدة ، ومنها كان الرصد لبعض سمات الشاعر وتفكيره وطبيعة الصياغة التي ميزته يمكننا أن نقرأ من خلالها ذلك كله قراءة جامعة ومحوصلة لما يمكن أن تتقاطع فيه هذه الخصائص مع بعضها لتنتج لنا خصائص جديدة نتوجه بها لإدراك التوجهات العامة لهذا الشاعر في التفكير وفي الصياغة ، وما يمكن أن يقدمه أو قد قدمه الشاعر من جديد لهذه الحركة الأدبية في الوطن العربي وفي الجزائر بالخصوص .

ومن أهم ما يذكر فيما يتعلق بالرؤى الفكرية الجديدة الخاصة بالشاعر هو بحثه الدؤوب عن الحقيقة الأبدية عن طريق الإبداع الشعري، وهي مهمة شاقة جدا، ومن المهام التي عجزت أمامها علوم كثيرة كالفلسفة والكهانة وغيرها ، ولكنه وفي غمرة بحثه عنها لم يبد يأسه أو إيمانه لفكرة اللامنتمي، وانسحابه من الحياة كما فعل سابقوه من أمثال الشاعر الكردي " بولند الحيدري " أو الشاعر الجزائري " عبد الله بوخالفة " والذين رفعوا رايتهم البيضاء، وأعلنوا انسحابهم من الدنيا بالانتحار، كذلك لم يعلن الشاعر تقمصه للحداثة المتطرفة والتي تعلن عن انسلاخها التام من الموروث والماضي التليد من أمثال الشعراء الآخرين كـ " أدونيس " (علي أحمد سعيد) و " أنسي الحاج " و " ليلى البعلبكي " وغيرهم، بل مد الحداثة ووصلها بالتراث والموروث الثقافي والفكري والأدبي قدر المستطاع، كما أن موقفه من التاريخ لم يكن سلبيا مثلما فعل المفكرون والعلماء المحدثون وعلى رأسهم المفكر الياباني " فوكوياما " ذو الجنسية الأمريكية والذي أقر بانتهاء التاريخ وموته في الفكر المعاصر، بل كان هذا الأخير ـ أي التاريخ ـ المعين والزاد الذي ارتقى به الشاعر ليوظفه في أعماله بصورة أعطت له مصداقية وفاعلية جديدة ، ودعمت آراءه ، ونسجت صوره الشعرية .

ومن مواقفه الفكرية المستلهمة من خلال نماذجه الشعرية تتجسد فكرة حوار الحضارات البشرية وتفاعلها وخدمتها للفكر البشري والإبداع الأدبي بمختلف صوره ، وهو ما جسدته تلك الوقفات أوالخرجات النثرية ، واقتباسه لكلمات من سفر التكوين " التوراة " وفي ذلك رفض لما أطلق عليه المفكر الأمريكي " هنكلتون " بمصطلح صراع الحضارات وخطر الإسلام والكنفوشية على الحضارة الغربية .

ومما يسجل له كمبادرة حسنة في الإبداع الشعري هو إحياؤه لمصطلح المدينة المانحة في الأدب العربي بعدما أصبحت المدينة في الشعر العربي الحديث لا تمثل مصدرا من مصادر الإلهام والإبداع الفكري ، فالشعراء والنقاد الغربيون لا يرون في المدينة العربية إلا مصدر رزق ونشاط نفعي مادي لا فكري وثقافي كما تعرف به مدنهم (باريس ، لندن ، روما) كمصادر استلهم منها شعراؤهم وأدباؤهم فنونهم وإبداعاتهم ، واتهموا مدننا بأنها تعطي الذاكرة ولا تعطي الإبداع ، وفي دفاع الشاعر عن مدينته ومقدساتها وحرماتها وسكونها تجسيد بيّن لخضوعها الفكري للأطر والأهداف العامة التي تقوم عليها الدولة وتنبع من حرصها على استقرار البلاد وسلام العباد ، ويلاحظ ذلك من خلال رفضه وتورته على كل من يسعى إلى تهديد أمن البلاد من الانتهازيين والسلطويين والمتعصبين للمذاهب أو للفلسفات الخارجية ، بل دعا إلى الاعتداد بثوابت الأمة وبالتراث العقائدي الزاخر بالعطاءات الفكرية المتنوعة التي تخدم التراث الثقافي والتجدد الحضاري المؤسس عليها ، وهو بذلك يحاول مد جسور التواصل بين الضفة الشرقية للوطن العربي بالضفة الغربية ، ويؤكد على أن الحضارة الإسلامية والعربية واحدة موحدة برؤية فنية واحدة ثرية بامتزاج القوميات والثقافات ، ومجسدة لامتداد حضاري يتوسط هذا العالم ويحاول إنشاء جبهات دفاع صادة لمختلف التيارات الفكرية والثقافية والأدبية الوافدة من كل جهة على جسد هذه الأمة الطاهر .

أما بخصوص المبادرات الفنية الأدبية التي اتضحت عند الشاعر من خلال هذا العرض والتقويم المجمل ما نتناوله في كتبه الثلاثة ، والذي يعد من الإنجازات الأدبية الساعية إلى التجديد وبعث الحركة الشعرية بصور مستحدثة ما نلحظه في

تأليفه بين الوزن أو الإيقاع العروضي الخليلي والوزن الشعري الحر هذا الأخير الذي أسهم فيه شعراء من أمثال " نازك الملائكة " و" بدر شاكر السياب " وغيرهم، وقد أظهر الشاعر تمكنه من نظم أفكاره على الوزنين المختلفين ، وتحميلهما لمعان لم تكن لتظهر لولا قدرته على تطويع الوزن الأول لخدمة الفكرة وتأدية الرسالة الإبلاغية ، وتكليف الوزن الثاني لتبني الشعور والإحاطة بالانفعال كما نلاحظ بجلاء تلويحه بالكلمة الشاعرة المثقلة بالإيحاء والدلالة وانتقاله بها من مجال إلى آخر محاولا كسر كل جمود بين العبارات والتراكيب التي توارثتها الشعوب العربية واتخاذها كسلاح فعال في مواجهة الزخم المعجمي الذي تتداوله الأقلام الشعرية الأخرى ، فكانت بذلك محور الحدث الإبداعي ونواة الصياغة في العمل الأدبي كما أنه لم يفتأ على مداعبة اللغة والتلاعب بتشكيلاتها اللفظية وتطعيمها بمشمومات علم البلاغة فكان الرمز أداة للتعبير في أقصى صوره وكانت الأسطورة مرجعا للتجربة الإنسانية المشتركة ، وكان الخيال هامشا للحرية والانطلاق ، وبذلك حاول أن يجد لواقعه معادلات موضوعية ـ حسب تعبير الناقد الأنجليزي " ت . س . إليوت " ـ في نماذجه الشعرية ، كما حاول مرارا التأسيس لتجربة شعرية فريدة حاولت أن تأخذ أو تنهل من الحياة بكل معانيها الواقعية والمثالية وهو بذلك ينقل الشعراء من مهمة الإنشاد والإمتاع والانحياز للغير لمهمة أشد صعوبة تحاول وضع الشاعر أمام رسالة إنسانية تهدف إلى تنشيط كوامن الحياة في الإنسان ودعوته إلى التأمل والتدبر في ما يحيط به من كائنات مرئية ولامرئية، كما تحاول هذه التجربة الشعرية بيان أهمية الوظيفة التي يؤديها الشعر من خلال الشعر نفسه كأداة وسلاح وكيان يفرض ذاته بذاته من خلال شعريته وانزياحه عن الأدوات الحافة به.

وفي نهاية المطاف لا يمكن للمرء قارئا أو ناقدا إلا أن يضع مثل هذه التجارب في مواضعها التي تستحقها تقديرا وإعجابا لا من قبيل التهليل الانطباعي أو الانفعالي بل على أسس موضوعية ترى بأعين ماورائية نافذة لفكر ومادة هذا العمل في تكامله وانسجامه وثرائه على جميع المستويات الشكية والمعنوية ، ولا ندعي بذلك الكمال ـ حاشا لله ـ بل نود الوقوف على مكامن القوة فيه وتشجيعه عسى أن يكون

منهلا ومصدرا لقواعد وآليات جديدة في التأليف والإبداع الشعري في المستقبل وهي مهمة موكلة إلى النقاد بالخصوص ، وما محاولتنا هذه إلا مبادرة ذات نية حسنة تهدف إلى لفت انتباه هؤلاء لدراسة هذا العمل ، ومحاولة استغلاله لإضاءة بعض الجوانب التي أغفلناها قصدا أو دون قصد .

الهوامش :

1- عبد الله حمادي : مدخل إلى الشعر الإسباني المعاصر لدراسات 1985 ص 242
2- المرجع نفسه ص 8.7
3- محمد بوشحيط : (الشعر الجزائري المعاصر) مجلة الرؤيا ع س3 اتحاد الكتاب الجزائريين 1983 ـ ص 36
4- حبيب موسى : القراءة والحداثة ـ دراسة ـ منشورات اتحاد الكتاب العرب دمشق 2000 ص أ
5- عبد الله حمادي : البرزخ والسكين (ديوان شعر) جامعة قسنطينة 2000 ص 9
6- عبد الرحمان عبد السلام محمد (إشكالية الحداثة) عالم الفكر مج 30 الكويت 2001 ص 74
وينظر : ـ عبد السلام لمسدي ـ النقد والحداثة ـ دار الطليعة ـ بيروت 1983 ص 11
7- رولان بارث لذة النص ، ت ، منذر عياشي ـ مركز الإنماء القومي الحضاري
8- عبد الله حمادي : مساءلات في الفكر الأدبي ، ديوان المطبوعات الجامعية 1994 ص 208
9- المرجع نفسه ص
10- شكري عزيز الماضي : ـ محاضرات في نظرية الأدب ط1 ، 1984 البعث ص 56
11- حسين خمري : شعرية الأنزياح في قصيدة (يامرآة من ورق التوت) مجلة الآداب قسنطسنة ص 180
12- نادية خاوة (الأنطولوجية في ديوان البرزخ والسكين) محاضرة من الملتقى الثالث للسمياء والنص الأدبي ، جامعة بسكرة 2004 ص 345
13- بلحيا الطاهر : تأملات في الباذة الجزائر ـ المؤسسة الوطنية للكتاب 1989 ص 60
14- عبد الجليل مرتاض : مباحث لغوية في ضوء الفكر اللساني الحديث ، دار ثالة 2003 الجزائر ص 26
15- عبد القادر رابحى : النص والتعقيد ج1 ـ دار الغرب ـ 2003 وهران ص 47
16- شكري عزيز الماضي : محاضرات في نظرية الأدب ط 1 ، 1984 ، دار البعث ص 56